قصة

ليلة في السجن

د. حسين مؤنس

هذه الحكاية تبدأ فى تاريخ محدد : الساعة التاسعة والثلث من صباح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ . أذكر ذلك التاريخ لأن الحكاية هنا موضوعها مظاهرة طلابية وماوقع فيها وماتلاها من سجن ، وما كان فى هذا السجن . المظاهرة كانت احتجاجا على تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

كان كل المصريين قد قبلوا فى الواقع تصريح ٢٨ فبراير ، وأصبحت مصر بمقتضاه مملكة يترع على عرشها صاحب جلالة ، وفا دستور وبرلمان . ودخل حزب الوفد – وكيل الأمة – الانتخابات على أساس هذا التصريح البعيد جدا عن الاستقلال التام أو الموت الزؤام . وبدلا من الموت الزؤام فاز الوفد بالأغلبية . وتولى سعد زغلول الوزارة ووضع دستور ١٩٢٣ . كل ذلك ومازال المصريون حتى ذلك الحين ينكرون تصريح ٢٨ فبراير ويرددون قول سعد زغلول فيه إنه قيد من ذهب . قيد أو غير قيد فإننا بطبيعتنا نعرف كيف نوفق بين المستحيلات ، ومنذ أيام قنا بمظاهرة نطالب فيها بدستور ١٩٢٣ الذى ألغته الحكومة مع علمنا بأنه جزء من القيد الذهبى .

واليوم بداية هذه الحكاية – نضرب عن الدراسة ونقوم بمظاهرة استنكارا لتصريح ٢٨ فبراير . .

المهم أننا كنا فى الحصة الثانية ، وكان الدرس فى مادة الطبيعة . كالعادة كنت فى الصف الأول منصتا بغاية الاهتمام للأستاذ . وكنت أحب هذا الرجل لأنه كان يتحدث بهدوء ووضوح ، وكان عالما حقا ، وكان هو يحبنى لأننى كنت من المجتهدين المواظبين الذين يحبون المدرسة والدروس والمدرسين ويجلسون فى الفصل فى غاية الهدوء .

وفجأة فى الساعة التاسعة والثلث كما قلت ، سمعنا هتاف المتظاهرين من بعيد . عرفنا أن الشلال الصاخب لن يلبث أن يصل إلى مدرستنا ليأخذنا معه . كان هذا هو التقليد : تبدأ المظاهرة فى المدرسة الخديوية ، ثم تطوف بكل مدارس حى السيدة كأنها « مسحراتى » يوقظ النائمين . وفى مرورها تأخذ طلبة المدارس . ولاتنقضى ساعة حتى يكون ألوف التلاميذ سائرين فى شارع درب الجماميز يهتفون بأى شئ تتطلبه المناسبة . فى هذا اليوم كان صيحة المعركة : يسقط تصريح ٢٨ فبراير . يسقط الاستعمار . نعيش ونحيا مصر ، معذرة . نموت ونحيا مصر .

وأقفل المدرس دفتره وقال لى :

– لافائدة . ضاع اليوم . .

وبعد لحظة صمت قال لى :

– لاتأخذ كتبك معك . أقفل درجك على كتبك ودفاترك فلا يدرى أحد ماذا سيحدث فى المظاهرة .

وقال جارى فى الفصل :

– لا . . أنا آخذ كل كتبى . وكيف أذاكر فى البيت بدون كتب ؟

وابتسم الأستاذ . فقد كان يعرف ان هذا الطالب الطويل العريض . واسمه مجاهد أمين مجاهد لايستذكر قط . وكان يعرف أننى فى الحقيقة وفى أمره . فقد كان ساذجا جدا أو عبيطا كما يقولون . ولم أكن أشاركهم هذا الرأى فقد كنت أحب مجاهد . لأنه تلميذ طيب القلب جدا وكريم بصورة

لاتصدق ، كان يصغرنى بعام ولكنه كان أطول منى بنصف متر وأعرض منى بكثير . وكانت والدته السيدة نفيسة شرف الدين زوج الحاج أمين مجاهد تعتبرنى مسئولا عنه . وكانت تفيض على من كرمها وعنايتها حتى أصبح بيتهم بيتى . وكانت تريد أن تقدر لى رأيها للعناية بابنها والمذاكرة معه . ولكنى رفضت لأن سنية هانم كانت تفيض على من الحب والرعاية مايزيد على أى راتب . وكنت أبيت فى دارهم أكثر مما كنت أبيت فى دارى . ودارى كانت دار عمى . كنت أعيش فيها مهملا لايكاد يحفل لأمرى أحد . لأن عمى كان مريضا وزوجته كان وزرها قنطارين . وبناته الثلاث عوانس . فكيف مع هذا كله يعنى فى أحد ؟ . .

بعد دقائق كنت فى تيار المظاهرة . وفقدت إحساسى بنفسى مع القطيع . وهتفت بسقوط تصريح ٢٨ فبراير . وكان مجاهد يمسك بذراعى ويسير حتى دون أن يهتف . فقد كان جيبه مليئا بالفول السودانى . والفول السودانى كان ألذ شىء فى الوجود عنده ، وهو مفضل عنده حتى على الوطن والاستقلال والدستور .

وكانت وجهتنا فيما أظن ميدان عابدين . لا أحد يعرف إلى أين تمضى المظاهرات . فقد كان هناك شبان محترفون لذلك العمل . تراهم دائما محمولين على الأكتاف وهم يهتفون والبقية تردد . كانوا يسوقوننا إلى ميدان عابدين لكى يواجهوا الملك فؤاد بمطالب الشعب . والملك فؤاد إذ ذاك كان فى الأقصر يسامر مع المستر سمارت السكرتير الأول للسفارة البريطانية .

والنحاس باشا نفسه كان فى أسوان لأنه كان مجهدا وفى حاجة إلى راحة كما قالت الصحف . مشى تاركا أمر الجهاد لى ولمجاهد وللآخرين . والبركة فى محترق الجهاد .

وفى مكان ما من شارع الخليج المصرى وجدنا أنفسنا أمام صفوف متوالية من رجال بلوك الغفر وهم جنود أشداء عتاة ، بأيديهم شومات قاسية ، وعلى رءوسهم خوذات وخلفهم اللوريات . وفى ركنى الشارع كان الكونستابلات على الموتوسيكلات ، وبعضهم الجليز وبعضهم أرمن وبعضهم مالطيون . هؤلاء كانوا مسلحين بمسدسات وكان منظرهم رهيبا .

وكان هذا المنظر كافيا لتبديد الجمع الحاشد . عرفت فيما بعد أن بعض المتظاهرين ساروا حتى اصطدموا بحاجز الجنود والكونستابلات ، وأن معركة دارت وجرح الكثيرون وامتلأ الجو بالصياح . وأردت التقدم ولكن مجاهدا صرخ :

– إنهم سيقتلوننا يافلان . . .

وجرى وهو يحرق حلقه حتى تعثرت . كان يقبض على ذراعى بأصابع من فولاذ . وفى هرولته وقعت منه كتبه وكراريسه التى أصر على أحدها معه ، ودحلنا حارة كانت تسمى « قنطرة الذى كفر » وبالفعل لم نكد ندخل حتى وجدنا أنفسنا أمام الذى كفر . . ممثلا فى حائط آخر من جند بلوك الغفر والشوم فى أيديهم ، ووقفنا جميعا كالقطط بما فى ذلك زعيمنا الذى كان محمولا على الأعناق . جعل يصيح : أنزلونى فى عرضكم ! وأنزلوه وصار رعية مثلنا ، وتنازل عن الزعامة لكى يفلت بجلده وكان عنده حق ، فإن ضربة واحدة من شومة بلوك الغفر تكفى للرقاد فى المستشفى شهرا على الأقل والخروج بعاهة . وكان هؤلاء الجنود يتحولون إلى شياطين ويضربون فى عنف حينما اتفق . لايهمهم ما يصيب المتظاهرين . وأنا نفس أصابنى مرة لمسة خفيفة من طرف شومة على عاتق الأيمن دخلت بسببها المستشفى ثلاث مرات .

وأمسكوا بنا كالأرانب . ولا أدرى كيف صعدنا إلى اللوريات . فقد كانت عالية جدا ، ولكن الخوف يجعل الإنسان يقوم بالمستحيل دون أن يدرى . وكل الذى أذكره أن مجاهدا لم يترك ذراعى قط . وعندما وقفنا فى اللورى كأننا ماشية ترسل إلى المذبح كان مجاهد يبكى ويقول :

– سيشفقون ياناس . . رحنا فى شربة ماء . والله ياحضرة الأوباشى أنا ماكنت معهم . .

وصرخ فيه الشبان :

– احرس ياجبان . . لتكن رجلا . . كله يهون فى سبيل الوطن . .

ونظر مجاهد إلى وجهى فرآنى ساكتا هادئا فسكن جأشه وكف عن البكاء وازداد ضغطه على ذراعى .

ودخل بنا اللورى فى فناء المحافظة فى باب الخلق .

كان هناك مئات غيرنا . كانوا يفرغون شحنات التلاميذ المتظاهرين كما يفرغ لورى الرمل حمله على الأرض . ومايكاد حمل المتظاهرين يصل إلى الأرض حتى يصيح أوباشى عظيم :

– قفوا صفوفا عند الحائط يا أولاد الكلاب . ثم يقبل شاويشية ويدفعوننا فى عنف حتى يرصونا صفوفا بموازاة الجدران . ويمر شاويشية آخرون ويدونهم دفاتر يأخذون أسماءنا . وكانت العادة أن يقول التلميذ المقبوض عليه أى اسم إلا اسمه الحقيقى وقلت لهم إن اسمى عبد السميع عبد السميع زهران ، فقال الشاويش :

– عبد الشميع قطران . . ؟

– نعم قطران . .

أما مجاهد فبكل عبط قال : مجاهد أمين مجاهد ابن الحاج أمين مجاهد صاحب مخابز مجاهد .

وضحك الجميع وقال :

– لماذا يضحكون ؟ . .

– مش مهم . . ماحصل حصل . .

وظلت اللوريات تفرغ « رمل » التلاميذ حتى بعد الظهر ، وأصبح حوش المحافظة كتلة من اللحم البشرى .

وصاح أوباشى :

– أدخلهم التخشية . .

– التخشية امتلأت تماما . .

– إذن فضعهم فى الزنازين . .

– الزنانين ملأى . .

– إذن فماذا نعمل ؟

– اسأل الكونستابل حلوف . .

وهذا الكونستابل كان مالطيا اسمه كما عرفت ، فيما بعد هاروف . وكان والحق يقال أرحم بنا من الأوباشية ، فقد قال .

– دعهم فى الهواء . . الدنيا شتاء والشمس كويسة . . لو أدخلتموهم فى الغرف فطسوا . .

ورشينا فمشينا هدأ الجمع . أسلم كل منا مصيره للمقادير ووقف صامتا . وجاءت الساعة الثالثة بعد الظهر وجاع هذا الحشد الهائل . وقال طالب :

– احنا جعانين ياحضرة الأوباشى .

– ونطعمكم أيضا ؟ تعملون كل هذه الشوشرة ثم تطالبون بالأكل . . هذه المرة ستموتون جميعا من الجوع حتى نستريح منكم . .

وبدأت أنشودة تتصاعد : عاوزين ناكل . عاوزين ناكل ! وأصبح الهتاف بهذه العبارة يهز الأرض ومبانى المحافظة المتهالكة . . وصاح الكونستابل حلوف . . :

– كل واحد رغيف عيش حاف . . يا الله يا شاويش انت وهوه . .

وفرحنا جميعا ببشرى الرغيف الحاف . وجعلنا ننتظر فى هرج شديد . وأخيرا وصل الخبز . وتولى الكونستابلات التوزيع .

ووقفنا جميعا نأكل الخبز فى نهم . وفجأة برز من الصفوف شاب غريب الهيئة . لقد التهم رغيفه فى دقيقتين . ثم وقف والعيون شاخصة إليه . كان شكله عجيبا . كان صغير الحجم ، ولكنه كان يلبس طربوشا ارتفاعه ثلاثون سنتيمترا على الأقل . وكان يميل الطربوش على طريقة مصطفى كامل . ويلبس على عينيه نظارة ذات إطار معدنى على طراز محمد فريد . ويمسك بيده عصا سعد زغلول . وكانت ملابسه رسمية كاملة : بدلة سوداء ذات صديرى ورباط رقبة أسود يدور حارج ياقة منشاة وحذاء أسود لامع يغطى وجهه « جتر » أبيض ، وكان يضع أصبعيه السبابة والإبهام فى جيب الصديرى ، وكالبة الساعة تمتد فى قوسين من جيب الصديرى إلى الجيب الآخر . وبعد أن استلفت أنظار الجميع قال :

– فى سبيل مصر يهون كل شىء . حتى العيش الحاف . ولكننا لن نخاف قوات الاحتلال ، وأرجوكم يا إخوانى أن تتضامنوا وتقفوا صفا واحدا ، فقد قال مصطفى كامل : إن الموت فى سبيل مصر حلوة . .

وبدأت الهتافات تتعالى ، فأشار إلينا وسكتنا ، واسترسل يقول :

– لا أريد هتافا . أريد ثباتا . لتتحمل فى شجاعة ولتتمسك بمطالب الوطن حتى نتخلص من الاحتلال .

وأسرع شاويش نحوه بالشومة ، فلم يتحرك ولا اكترث ، ولكن أحد الكونستابلات أمر الشاويش ألا يضرب وطلب إليه لزوم الهدوء ، وقال هذا الشاب كلاما كثيرا حلاصته الثبات إلى الموت وليحى تضامن الطلبة .

وقال مجاهد :

– من هذا الولد الذى سيأتينا بمصيبة ؟

وهمس فى أذنه طالب :

– إنه زعيم مدرسة الخديوى إسماعيل ورئيس لجنة شباب الحزب الوطنى .

– وما اسمه ؟

– لا أدرى ولكننا نسميه مصطفى كامل محمد فريد .

والحق أن مصطفى كامل محمد فريد كان شابا محترما جدا كان يتكلم بحساب وبكل هدوء ويقف محترما جدا . فى وقت قصير سيطر على ذلك الجمع الحاشد ، أحسسنا كلنا بالاطمئنان كما يحس قطيع ماشية بالاطمئنان لأنه يسير خلف زعيم من جنسه ، وتطاير الهمس من فم لأذن : لا تخافوا : معنا مصطفى كامل عضو اللجنة المركزية لشباب الحزب الوطنى . إنه ابن أخت أمين بك الرافعى ، ولن ينالنا أذى مادام معنا .

ومن حسن الحظ أننى كنت إلى جواره . لا أدرى لماذا سعدت بذلك مع أن هذا الشاب فى جملته لم يكن يعنى بالنسبة لى شيئا ، ولكننى خلقت بطبعى متفرجا أحب تأمل

الناس والأشياء من قرب . وهذا الشاب فرجة . وكان موقف أنا ومجاهد جوار الحائط الأيسر عند مدخل المحافظة . فكنا نرى المدخل والداخل والخارج . بل كنا نرى من خلال الجنود جانبا من باب الخلق .

وقال مصطفى كامل : حافظوا على الهدوء . ودعوني أنا أتفاهم مع هؤلاء المختلين .

ويبدو أن الكونستابل حلوف استراح لهذا الشاب . وهؤلاء الأرمن والمالطيون كانوا رغم كل شئ على حكمة ورزانة ، ولهذا كان الإنجليز يدعونهم يتصرفون فى هذه الحالات .

وفى العادة لايميل الإنجليزى إلى خوض معاركه بنفسه ، بل يستعمل غيره فيها . وقد استولوا على الهند بالهنود . ونصف قوة الجنرال ولسلى التى دخلت مصر كانت من السيخ والجوركا الهنود .

وقال الكونستابل حلوف :

– اسمع يا ولد . .

وقال مصطفى كامل

– أنا لست ولدا . .

– لا مؤاخذة . . ما اسمك ؟

وهتف الطلاب

– مصطفى كامل

– كويس اسمع يا مصطفى كامل . قل لأولئك التلاميذ أن يلزموا الهدوء ، قد نستطيع أن نحصل لهم على العفو إذا لزموا الهدوء . .

– إننا لا نريد عفوا . . نحن نطالب بحقوق مصر . .

وتمشيا مع ما يتطلبه الموقف من هدوء قال الكونستابل :

– ستأخذونها حقوق مصر ، كلها . فقط الزموا الهدوء حتى يعرض الأمر على سعادة الحكمدار . .

– رسل باشا ؟ نحن لانخضع لرجل إنجليزى . .

– إذن فسعادة المحافظ . .

وقال طالب .

– إنه انجليزى أيضا . .

– لا . . المحافظ مصرى واسمه محمود

– مش معقول يكون محافظ ومصرى . .

– قلت لك إن اسمه محمود باشا

وقطع مصطفى كامل الحديث قائلا :

– هل سيتام الطلبة هكذا فى العراء ؟ .

– سنأتيكم ببطاطين لأن التخشيبة ملأى . .

وقال مجاهد :

– ونريد أن ناكل . .

– سيوزع عليكم الخبز . . فقط التزموا الهدوء

وعاد مجاهد يقول :

– أنا أستطيع أن آتى بطعام لكل هؤلاء . .

وقال مصطفى كامل .

– أنت لا تقول شيئا . هم حيسونا ظلما وهم ملزمون بنا . .

– أصلى ابن الحاج أمين مجاهد

وصاح شاويش :

– الحاج أمين مجاهد صاحب مخابز مجاهد فى درب سعادة ؟

– أبوه . . والنبى يا شاويش أرجوك أن تبلغ أبى وأمى أننى هنا . .

وقال الشاويش :

– حاضر

وصاح الكونستابل :

– احرس يا شاويش . . كيف تقول لتلميذ محبوس تحت التحقيق . حاضر .

– أصله ابن الحاج أمين مجاهد . .

– وإيه يعنى ؟ . .

– الحاج أمين مجاهد يا سعادة الكونستابل عنده أكبر مخابز مصر ، وهو الذى نأخذ منه كل خبز المحافظة . . ولو علم أن ابنه هنا فلابد أن يطعم كل هؤلاء ونحن معهم .

– هل هذا كلام يا شاويش ؟ . . دول مساجين فقط . وأنت محبوس يومين فى الزنزانة عقابا لك على هذا الخطأ . .

وساد صمت . . وانسحب الشاويش ، وقال الكونستابل :

– نريد الهدوء . لايهمنا الحاج مجاهد أو الحاج عفريت . قل لهم يا مصطفى كامل إننا سنوزع عليهم بطاطين وخبزا .

– لايمكن أن نحبس دون تحقيق . . حققوا معنا أو أطلقوا سراحنا . .

وصفقنا جميعا لمصطفى كامل .

وقال الكونستابل : سنحقق معكم كلكم ، ولكن التحقيق يستمر إلى الصبح . كل أقسام مصر مليئة بالطلبة المشاغبين . واللجنة تصل إلى هنا الساعة الثامنة مساء . . إذا لزمتم الهدوء لم نحقق معكم وأحرمناكم فى الصباح

وصاح طالب :

– يعنى بعد ثلاث ساعات . . نحن نموت من العطش ؟

وقال شاويش :

– عندكم حمسون حنفية فى دورة المياه . .

وكانت دورة المياه هذه أسوأ شىء يتصوره العقل . تصور أن فيها محلى « أدب » وعددنا نحو ١٨٠٠ غير الشاويشية . . حاولت أن أقترب منها فكاد يغمى على ، فعدت مكانى ، ثم يقول لنا هذا الشاويش أن نشرب منها . .

وقال مصطفى كامل :

– إذن فعلى الأقل هاتوا لنا كيزانا نشرب فيها .

– مافيش كيزان . . .

وبعد دقائق رأيت عربة تقف بعيدا عن باب السجن ، ويتقدم شيخ أشيب يلبس جلبابا وطاقية ويقول :

– أنا عم إسماعيل السمكرى فى تحت الربع ، بلغنى أن أولادنا فى حاجة إلى كيزان . . أحضرت لكم ١٠٠ كوز ، وجارى ابراهيم السباك يقلل . . نحيا مصر . .

ووصلنا الكيزان ، ثم جاءت القلل بالمئات ملأى بالماء . .

وشيئا فشيئا بدأ أهل باب الخلق والدرب الأحمر ودرب سعادة وشارع الصمد على وتحت الربع يتجمعون رجالا ونساء أمام باب المحافظة .

وصاحت سيدة بدينة تلبس ملاية لف :

– عاوزين حاجة يا اولاد ؟

وبنفس واحد قال الذين سمعوها :

– نريد أن ناكل يا ست . .

– عينيّ ، النبى حارسكم . . بت يا إنصاف . بت يا إحسان . بت ياروحية . . كلكم ياستات هاتوا اكل لاولادكم واخواتكم .

ومن بين صفوف النساء برزت سيدة وقالت :

– فين مجاهد ؟ . . فين ابن مجاهد ؟ . .

وعرفت صوت السيد نفيسة هانم أم مجاهد . .

وصرخ مجاهد كأنه طفل ناله عنت على أمه .

– انا هنا يا نينا . . ! الحقينا يا نينا !

وضحك الجميع حتى الكونستابل حلوف . .

وقال مصطفى كامل وابهامه وسبابته فى جيب الصديرى :

– احتشوى يا ولد . . أنت مجاهد فى سبيل الوطن ، ولايجوز لك أن تتصرف كأنك طفل . .

وقال مجاهد . .

– دى نينا . . دى أمى

– مافيش هنا نينا ولابابا . . نحن لسنا أطفالا . .

وقالت السيدة نفيسة بحكمتها ورزانتها التى أعرفها .

– عندك حق يا جدع . . أنت ابن مين . .

– أنا ابن مصر

– براوة عليك . . أنا يا ابنى أمكم كلكم حرم عمك الحاج أمين مجاهد . . لم آت لابنى فقط بل لكم جميعا . . أتيت لكى أرى إن كنتم بحاجة لشئ . . خير ربنا كتير والدنيا بخير .

وقال أحد الشاويشية :

– عاوزين فطير ياست هانم .

– كل ما تريدون : خبز وفطير وبطاطين . . المهم ألا تخافوا . .

وقالت :

– مجاهد . . فين حسين ؟

– هاهو ذا الى جانبى . . أمسكوا به معنا . .

– مادام معك فلا تخف . . بعد دقائق يأتى الخبز ، وكلها ساعة وسآتيكم كلكم بفطير .

وقال الشاويش :

– دول ألفين باهانم . .

– حتى لو كانوا عشرة آلاف دول أولاد مصر . .

– واحنا . . ؟

– أنتم كذلك أولاد مصر ، ولكن لقمة العيش حكمت عليكم . .

– طيب والنبى عايزين فطير ياست هانم . .

وقال أوباشى جهم الوجه :

– عيب يا شاويش . . الحكومة غنية وأنت شاويش . .

وقال له الكونستابل حلوف :

– دعه يا أوباشى . . وماذا يضرك أن يتولى الناس أمر إطعام هذا الجيش . . أنت تعرف الحكومة . . لو انتظرنا لما وصل الأكل إلا فى منتصف الليل . . وهؤلاء جيش يمكن أن يهدم السجن . .

وقال الشاويش :

– أى والله يا كونستابل . . قل للأوباشى . . على الأقل نأكل مرة أكلا محترما على حساب الأولاد ، تعرف يا كونستابل ، من حسن الحظ أننا أمسكنا اليوم أولاد أغنى تجار البلد : أولاد المرجوشى والمراغى والمناديلى والجمال والقباج والحمصانى . . وناس آخرين كلهم مال . . وهؤلاء فى طريقهم لإنقاذ أولادهم ، ومعهم فى الخبز . . مرة نتمتع . .

وفى لحظات انتشر الخبر فى هذا الجمع الحاشد ، وابتسمت الوجوه وساد السرور وضحك التلاميذ مع الشاويشية لأن المطاعم اللذيذة فى الطريق ، وعندما سمع الطلاب أن ابن عم عنتر الكبابجى مسجون معهم زادت المسرة وهاصت الدنيا ، وصعد تلميذ على منصة يلقى منولوجات تحية للكباب المنتظر !

البقية فى العدد القادم